من مقومات نهوض الأمة المسلمة

الدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي

نشر في كتاب

الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى

1421 هـ /2000م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

من مقومات نهوض الأمة المسلمة

الدكتور عبد الوهاب بن لطف الديلمي(*)

من الجنايات العظيمة على العقل المسلم، أن جعلت القدرة على الاستنباط والفهم حكرًا على أفراد محدودين مما أورث العقل العقم وصادر حقه في التفكير والإبداع في عصر جدت فيه كثير من القضايا واتسعت ميادين العمل وتغيرت المشكلات.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن الله سبحانه تكفل بحفظ دينه، فحفظ لعباده أَصْلَي الدين، وهما: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ.. وحقق ما وعد به رسوله عليه الصلاة والسلام من ظهور الدين وغلبته، ولو كره الكافرون والمشركون..

وما يزال الله سبحانه وتعالى يبعث بين كل حين وآخر من يجدد للأمة أمر دينها، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا أَمْرَ دِينِهَا**»(1).

كما أن من سننه سبحانه: أن يظل الحق مع صراع دائم مع الباطل، ولكل أنصاره وأتباعه وجنوده وحزبه.. وكلما صدق أصحاب الحق وأخلصوا لله سبحانه وتعالى

(*) مدير جامعة الإيمان (اليمن).

(1) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة، برقم 4291.

في أعمالهم، وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم في سبيل نصرة دين الله سبحانه، أيدهم الله تعالى بنصره، وكانت لهم الغلبة على أعدائهم.. وكلما أدركهم الوهن والضعف، وتأثروا بعرض الدنيا وزينتها، وقل إيمانهم، ورقت عبادتهم، فإن الدولة تكون لعدوهم عليهم.

وما يزال الله سبحانه يتدارك هذه الأمة بتوفيقه ورعايته كلما انتابها الضعف، وهذا يحمل على الرجاء وعدم اليأس في إدراك رحمة الله سبحانه -إن شاء الله- للأمة في وضعها الراهن، وأنه مهما أحاطت بالأمة عوامل الانهيار فلا بد من عودة حميدة إلى دين الله سبحانه، يعود به للأمة عزها ومجدها ومكانتها.. وتحتل الصدارة في قيادة الإنسانية إلى بر الأمان وخاصة وقد وصلت الإنسانية اليوم إلى حافة الهاوية، وظهر عوار الأنظمة البشرية، وأفلست كل النظريات -البعيدة عن وحي الله- عن جلب أي سعادة للإنسان، مما جعلته يتخبط في ضلالات التيه وظلمات الحيرة..

وقد أودعت في هذا البحث، ما يمكن أن يبعث الأمل في أن يعود للأمة دورها من جديد في إنقاذ البشرية مما وصلت إليه.. وقد سرت فيه على النحو التالي(*):

- بيان العوامل التي أدت إلى انحسار المسلمين عن الإسلام حتى أصابهم ما أصابهم..
- قدرة الأمة المسلمة على أن تنهض بواجبها من جديد، لما عندها من مقومات..

عوامل الضعف والانهيار التي أصابت الأمة الإسلامية

لقد نزلت بالأمة المسلمة عوامل وأسباب كثيرة أدت في مجموعها إلى ركود العقل، ووصوله إلى مرحلة العقم الذي عجز بسببه عن الإبداع والابتكار، كما عجز

(*) نظراً لحجم البحث وبتفويض من الباحث قمنا بتجاوز بعض القضايا التي رأيناها مستوفاة إلى حدٍ ما في مساهمات أخرى.. (الناشر).

عن مواجهة المستجدات والتحديات، كما أصيب أيضًا بالعجز عن مواكبة الجديد في الفكر الإنساني، حتى أصيبت الثقافة بركود وجمود، وكل ذلك بدا واضحًا بعد أن انهارت الخلافة الإسلامية، وانحسرت سيادتها، وتمزقت الأمة الإسلامية إلى أشلاء، وظهرت القوانين الوضعية في ديار المسلمين، فطغت على شريعة الإسلام، وبرزت النعرات الجاهلية، واصطنعت الحدود بين المسلمين، وارتفعت دعوات القوميات، وأصبح الحكم في أيد تلوثت بالولاء للغرب أو للشرق، وتنكرت لأبناء جلدتها، واستخدمت كل وسائل البطش للوصول إلى الحكم والاستئثار به، والاستمرار عليه، وأَجهضت كل توجه من شأنه أن ينازعها الأمر، أو يفسد عليها دنياها، فحصل بذلك اغتيال الأمة التي كانت صاحبة الريادة والسيادة، التي أرادها الله لها بما اختار لها من الدين.. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (البقرة:143)، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ (آل عمران:110).

وبذلك كانت صاحبة الحق في حمل الرسالة إلى البشرية.. تلك الرسالة التي هي مصدر الهداية والسعادة والخير للإنسانية في الدارين.. وقد كانت الأمة الإسلامية قبل أن يصيبها ما أصابها، ذات مقومات، حفظت عليها دينها، وحفظت عليها لغتها ووحدتها، وحفظت عليها كثيرًا من أخلاقها وآدابها المتميزة، وحفظت عليها هويتها من الضياع والانطماس، ومنحتها القدرة على الاستمرار على الرغم مما أصاب أحوالها في فترات متأخرة من التشوه، والنقص، وانتشار الجهل، وظهور البدع، والغلو في التبعية والتقليد، والافتتان بكل وافد عليها من الغرب، حسنه وقبيحه.

ومن أهم عوامل الدمار والفساد التي لحقت بالأمة الإسلامية:

1- ارتداد كثير من العرب بعد رسول الله ﷺ .

2- إحياء القوميات والنعرات التي فتت الأمة.

3- زحف التتار على العالم الإسلامي وتحطيم كل شيء فيه.

4- تألب جيوش الصليبيين وغيرهم عليها.

5- فرض القوانين الوضعية.

6- غزو الحضارة الغربية، وما جاءت به من ثروات وترف وفساد.

7- قيام الحكم الاستبدادي.

8- ضياع الخلافة الإسلامية وتقطع أوصالها إلى دويلات ذات حدود وقوانين وأنظمة وأنماط متباينة.

لقد أصيبت الأمة الإسلامية بانتكاسات في أخلاقها وقيمها فغلبت عليها الأنانية، وأصيبت بداء حب الدنيا والخلود إليها، وتملكها حب الرئاسة والملك والتهالك عليه، حتى ماتت فيها الغيرة التي كانت في أسلافها، وانتهت في نفوسها الحمية على الإسلام، فلا يستثير غضبها حرمة تنتهك، ولا عرض يستباح، ولا أرض تسلب، ولا شعوب تشرد من ديارها، ولا مجازر تحل بأبناء دينها، ولا ديار تهدم على شيوخها وأطفالها ونسائها، واكتفت في كل أحوالها بحضور المؤتمرات والندوات، وإصدار القرارات والتوصيات التي ضاقت بها مخازنها دون أن يكون لها أثر في واقع الأمة المخزي.. وهذه العوامل كانت كافية لاستئصال الأمة الإسلامية، والقضاء عليها.

ومع ذلك كله خرجت هذه الأمة العظيمة في فترات مضت من تاريخها من تحت هذا الركام، ومن بين هذه العواصف سليمة، معافاة، قوية، نشيطة، تنفض عن نفسها آثار غبار الموت وتراب القبر.. واستأنفت سيرها في طريق الإيمان من جديد، في عزم وثقة وروح جديدة.. تسري في عروقها وخلاياها.. وحماسة منقطعة النظير، واعتصام بالله تعالى، واستمساك بدينها، ويقين بنصر الله.

إن من أخطر العوامل أيضًا التي اغتالت مقومات المسلمين:

1- أنهم فقدوا الثقة بأنفسهم وبدينهم، عندما بهرهم الإبداع المادي الذي تفوق فيه أعداؤهم، وأصغى كثير من العامة، وممن له ثقافة غير شرعية إلى الشبهة القائلة: بأن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين، حتى أصبحوا يقدسون كل شيء يأتي من الغرب، دون تفريق بين الضار والنافع، حتى ظنوا أن الحضارة تتمثل في إشباع الغرائز وإرضاء الشهوات.

2- احتكام المسلمين -في الغالب- إلى القوانين الوضعية، والآراء البشرية التي لا تمت بصلة إلى شرع الله تعالى، بل تضاد الشرع وتتصادم معه، وجلها من وضع أعداء الإسلام كالقوانين الفرنسية والإنجليزية وغيرها، وانساقوا وراءها عن طريق التقليد الأعمى، وبالتالي أعرضوا عن الاحتكام إلى شرع الله سبحانه..

3- فتن المسلمون بالقوى البشرية المتصارعة في الشرق والغرب، فانحازت طائفة إلى النظام الرأسمالي، وأخرى إلى النظام الشيوعي.. غير آبهين بالأسس الإلحادية التي قام عليها النظامان، وملقين وراء ظهورهم ما أوجب الله تعالى عليهم من البراءة من أعدائه وتولي أوليائه..

إن من العوامل التي هدت كيان الأمة الإسلامية، وأبعدتها عن مصادر تشريعها، أن كثيرًا من علمائها جعلوا جل همهم في خدمة فروع الشريعة، حتى طغى ذلك على الاهتمام بالأصول، فصارت النظرة إلى الكتاب العزيز والسنة المطهرة نظرة ثانوية، وصارت الدهماء مشدودة إلى الفروع أكثر منها إلى الأصول، وربما كان كثير من مسائل الفروع التي قضوا فيها حياتهم لا أهمية لها في واقع المسلمين وحياتهم، ولا تعالج شيئًا من مشكلاتهم التي يعانون منها، على أنه لا يمكن نكران أهل الفضل والعلم الذين دافعوا عن دين الله، وحفظوا شرعه، ونشروا العلم، ووقفوا في وجه الملحدين والظلمة المفسدين، كما لا يمكن أن يصل اليوم إلى مرتبتهم أحد كما نحسب، ومع هذا

فإن بشريتهم لم تعصمهم من الوقوع في بعض الأخطاء، فاجتهاداتهم ليست وحيًا منزلاً معصومًا، بل هي مجرد استنباط للأحكام الشرعية من الأصول التي سبروا غورها، واستخرجوا كنوزها، وقربوا بفعلهم كثيرًا من أحكام الشريعة للناس، إلا أن كل هذا الذي فعلوه لا يصل إلى مستوى أن يكون مصدرًا من مصادر الشريعة، كالكتاب والسنة، حتى تقدس كما يقدس القرآن والسنة.

ولذلك فإن تقديس هذه الفروع، واعتبارها كالنصوص القطعية التي لا تقبل النقض ولا النقص، وأنها قواعد أبدية حَجَر على الناس الاجتهاد، وصار كثير من أهل العلم يرى أن باب الاجتهاد قد أغلق، وأنه لا يحق لأحد أن يلجه مهما كانت علومه، ومداركه، وذكاؤه وقوة استنباطه، وهذه من الجنايات العظيمة على عقول المسلمين، أن جُعلت القدرة على الاستنباط والفهم، والغوص في أسرار الكتاب والسنة، حكرًا على أفراد محدودين في تاريخ الأمة الإسلامية، مما يورث العقم في العقل المسلم، ويصادر حقه في الإبداع والتفكير، في عصر جدت فيه كثير من القضايا، واتسعت فيه ميادين العمل، وظهرت فيه مشكلات لم يعرفها أسلافنا.

فإذا وقف العالم حائرًا أمام هذه القضايا، لا يعمل عقله في التأمل في نصوص الكتاب والسنة، وقواعد الإسلام العامة، ليخرج بأحكام جلية تهدي الناس إلى الصواب وإلى رأي الإسلام في هذه الأمور، فإن الإسلام يتهم بالعجز والقصور وعدم القدرة على مسايرة الأزمان، بينما كلام الله الذي جعله الله كتاب هداية للبشرية إلى يوم الدين، هو الكلام الذي لا تتبدل أحكامه، ولا تتغير بتغير الأزمان واختلاف الأماكن، لأنه كلام المحيط علمًا بما كان، وما يكون.

ومن جناية هذا المنهج على الإسلام -أعني تقديس العلوم الفرعية في الشرع- أن دب التعصب المذهبي في صفوف المسلمين، حتى آل الأمر إلى إصدار أحكام التكفير والتفسيق، وتغير توجه المسلمين واهتماماتهم، وتقطعت أوصالهم.

وبذلك أصبح كثير من عامة المسلمين يدركون ما خلفه علماؤهم من جناية عليهم بهذا المنهج الذي قعد بالمسلمين عن التفكير والصدارة التي بوأهم إياها دينهم، وأن تقدم الآخرين في الإبداع المادي، إنما كان نتيجة لإعطاء العقل حقه في التفكير والإبداع، والانطلاق في التأمل في نواميس الكون وأسرار الخلق، فصاروا ينظرون إلى هؤلاء العلماء نظرة ازدراء واحتقار ناتجة من ردة الفعل عندما نظروا إلى أحوالهم وأحوال أعدائهم، وكان من نتائجها:

أن العامة صاروا يتحررون من تبعيتهم لهؤلاء العلماء، وينبذون سلطانهم، ويتيهون في كل واد، ويعمهون في كل ضلال، ولا يتقيدون بشيء من سلطان الشرع، أو إرشاد الهداة من الدعاة الصادقين.. واستغل قوم هذه الحال، فوجه الاتهام إلى الدين الإسلامي نفسه، بأنه دين جمود.. وألصقوا هفوات العلماء وأخطاءهم بالدين نفسه، وهذه من أعظم الجنايات التي تؤدي إلى غرس الشك في نفوس العامة بدينهم، وانتزاع الثقة من نفوسهم، وارتمائهم في كل هاوية، تتخطفهم شياطين الإنس والجن، التي تدعو إلى التحرر من الدين، والاتجاه إلى تقليد الأمم التي خدع الناس بما وصلت إليه من الرقي المادي.. ونبت في هذا الوضع المؤسف من ينادي بفصل الدين عن الدولة، وبفصل العقائد عن شؤون الحياة.. إلى غير من الدعوات الهدامة التي أمعنت في تمزيق الأمة وتقطيع أوصالها.

وعندما غابت دولة الإسلام، ولم يبق له من يحميه، ويذود عن حياضه ويقمع أهل البغي والفساد، وانفرط عقد الأمة الإسلامية، واشرأبت أعناق المفسدين، وأصحاب الشهوات، واختلطت الأمور، وتفاقم الشر، وصارت أبواب الإسلام مفتوحة لكل من يدخله دون حماية من أعدائه، ولا رعاية لأوليائه، ولا تمييز للخبيث من الطيب، انتمى إليه كل من يدعي الإسلام، وهو من أعدائه مثل:

1- الذين يشككون في أصوله ومبادئه وقواعده وتشريعه وتاريخه، ويعملون على نشر كل ما تكن صدورهم من قيح وصديد، فيختلقون الشبهات والأباطيل والافتراءات، ويشيعونها في أوساط البسطاء من عامة الناس، فيتركونهم في حيرة وشك من أمر هذا الدين.

2- وانخرط فيه من لا يتحرج من إعلان كفره وردته بين المسلمين، لعلمه أنه لا يوجد من يردعه، لأنه لا يوجد للإسلام من يغار عليه ويحمي كيانه وحياضه من أمثاله.

3- ودخل في سلك جماعته من يتهكم ويسخر ويلمز تشريعاته، وشعائره وأحكامه، ويطعن فيها، وينتقص منها.

4- ودخل فيه أيضًا من فتنوا بما عند الغرب من الأوضاع والأنماط والقوانين وأساليب الحياة العامة والخاصة، حتى صارت أمور الإسلام في نظرهم محل انتقاص.. تراهم يرفعون من شأن أعداء الإسلام، ويضفون على ما عندهم هالة من التمجيد والثناء، ليفتنوا بذلك المسلمين.

5- وضوى تحت لواء الإسلام كل من أخلص ولاءه لأعداء الإسلام، وآثر القوانين الوضعية على القرآن والسنة، ممن لا هم لهم سوى البحث عن إشباع رغائبهم، وتحقيق مصالحهم على حساب كل شيء في دين الله.

ولا شك أن وجود مثل هذه الفئات في جسم الأمة، مما يفت في عضدها ويهد كيانها، ويوهن قواها، ويمخر في جسدها.. وتجد سائر المسلمين -إزاء هذه الفئات- إما غافلاً عن كل هذا، لا يملك إحساسًا ولا شعورًا بما يجري.. وإما عالمًا بذلك، غير أنه لا يعبأ به، ولا تتحرك له غيرة على دينه.. وإما مدركًا لكل هذه المخاطر، عنده غيرة على دين الله سبحانه، ولكنه لا يملك إلا إرسال العبرات والأنات والزفرات.. وإذا التقى مع مثله بث كل ما في نفسه من الأسى والألم، فلا يملك إلا التباكي والتشاكي.. كل ذلك بسبب غياب السلطة التي تقوم بحماية دين الله عز وجل، وتسهر على مصالح المسلمين بالشكل المطلوب.

أسباب قدرة الأمة على استعادة دورها الحضاري

إن من أهم الأسباب التي تجعل الأمة الإسلامية قادرة على أن تقوم من جديد بدورها الحضاري، كونها تحمل عقيدة التوحيد الخالص.. العقيدة التي تحترم العقل، وتدفعه إلى البحث في كل مجال علمي نافع، ولا تضع عليه أغلالاً تمنعه من الانطلاق لاكتساب كل ما في وسعه أن يصل إليه، إلى جانب كونها لا تؤلهه، أو تجعله معصومًا من الخطأ والزلل، لأنه مخلوق له حدوده البشرية التي لا يستطيع أن يتجاوزها.. وهو في الأمور الغيبية وأمور التشريع، محكوم بحكم الله المحيط بكل شيء علمًا، والمنزه عن كل نقص وعيب سبحانه وتعالى.

وهي عقيدة لا تهمل جانب الخلق الفاضل الذي يسمو بالإنسان إلى أسمى ما يمكن أن يصل إليه البشر..

وهي عقيدة من أبرز سماتها الرحمة التي لا إفراط فيها، والعدل الذي لا تفريط فيه، تدعو إلى المحبة بين أبنائها، وتحمل على القيام بالواجبات بعزيمة لا تعرف الضعف ولا التواني.. ولا يعتريها استسلام لعجز أو كسل، وهي قائمة في تشريعاتها على اليسر ورفع المشقة.. مراعية في ذلك الضعف البشري، وقدرة الإنسان المحدودة. لا تدع مصلحة لفرد، ولا أسرة، ولا جماعة، ولا أمة، إلا راعتها وحمتها وأحاطت بما يصونها ويحميها من أي اعتداء.

إنها عقيدة تلازم الفرد أيًا كان نوعه، أو ثقافته، أو مكانته الاجتماعية، أو جنسه، أو مسؤوليته.. تذكره في كل أحواله بربه، وصلته بمن حوله من الأفراد والأسرة والمجتمع، وبالإنسان من حيث هو، وصلته بالكون كله، تسمو به دائمًا في مدارج الكمال، وسلم التقوى، كلما كان موصولاً بربه في عبادته ومراقبته، لا ينفك في كل أحواله من عبوديته لربه ووقوفه عند حدوده، وقيامه بفرائضه، ومراعاة ما يجب عليه من

حقوق للآخرين، والكف عن إيصال الأذى إليهم، وتحمله على العطاء والبذل للآخرين مما وهبه الله من علم، أو خبرة، أو رحمة، أو مال.. فهو مصدر خير وعطاء، أينما توجه حارس لدين الله، غيور على حدود الله، حافظ لحقوق خلق الله.

إن خير شاهد لخيرية هذه الأمة وقدرتها على بناء حضارة من نوع متميز وانتشال البشرية من الحضيض الذي سقطت فيه، والوهدة التي تردت فيها، ما صنعه المسلمون في ماضيهم عندما كانوا على غاية من الاستمساك بدين الله والاهتداء بهديه، فقد نشروا الرحمة بين بني الإنسان، وأقاموا العدل في أجمل صوره، وتعاملوا بسمو الأخلاق التي تجلت في مثلها العليا، وأدرك الإنسان حلاوة الحياة، وراحة النفس، وانشراح الصدر، وحفظ الكرامة، ونيل الحرية التي لم تمس في أي حق، أو عرض، أو مال، أو رأي، أو غيرها، في ظل دين الله والحكم بشرع الله.

إنها العقيدة التي تصون صاحبها من الطغيان عندما يصبح صاحب ثراء، وتحفظه من الوقوع في البغي حين يتمكن من تصنيع آلات الدمار، وتحميه من السقوط في إنكار الذات الإلهية، والميل إلى الإلحاد، والتنكر لنعم الله، إذا مكنه الله سبحانه من معرفة أسرار الكون، واستخراج كنوزه، ولا يتحول إلى وحش مفترس لكل ما حوله إذا صار صاحب نفوذ يبسط سلطانه على كل ما حوله، بل يزداد في كل هذه الأحوال خضوعًا لله، واستسلامًا له، وذلاً بين يديه، واعترافًا بفضله، وإدراكًا لحقه من الحمد والشكر وكمال العبودية، ورحمة بعباده.

هذه الأسباب وغيرها هي التي تمنح الأمة المسلمة الحق في حمل لواء الحضارة من جديد، وتجعلها وحدها المؤهلة لإنقاذ البشرية مما وصلت إليه، لأن ما بيدها من الخير هو الذي يمكن أن يخرج البشرية من الحيرة والاضطراب والقلق والتيه التي تعيشها.

وعلى الأمة المسلمة ينطبق قوله تبارك وتعالى:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:110)،

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(الحج:41)﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ (البقرة:143).

إن الأمة الإسلامية اليوم ليست في حاجة إلى شيء بعد هذا الركود الذي أصابها والنوم العميق الذي استحكم بها، إلا إلى قيادة صادقة مؤمنة، راسخة العقيدة، قوية الإيمان بنصر الله وتأييده، وبالقوة الكامنة في الأمة المسلمة، تأخذ بأسباب النصر التي أرشد الله عز وجل إليها في كتابه الكريم، سواء منها بأسباب المادية أو المعنوية، وتنبذ كل صور الجاهلية البعيدة عن منهج الله، والتي ما أغنت عن الأمة الإسلامية ردحًا من الزمان شيئًا، والتي حاولت من خلالها في عبث ولهو أن تستعيد فلسطين، وتزيح عن نفسها آثار الذل والمهانة والهزيمة والعار التي لحقتها، دون جدوى، لأنها خرجت عن المنهج الذي سار عليه أسلافها في إحياء معالم الدين، وصد هجمات أعدائه، والانتصار للحق والعدل.

وما يزال المسلمون يخرجون من محنة إلى محنة أشد منها، ومن انتكاسة إلى أخرى أقبح منها، ومن هزيمة إلى أنكى منها.. كل ذلك لأنها لم تمض في الطريق الصحيح، ولم تستلهم أساليب ووسائل النصر من وحي ربها وهدي نبيها ﷺ.

لقد فرطت الأمة تفريطًا بالغاً، يوم أن أهملت جانب الإعداد الذي أمرها به ربها سبحانه وتعالى في كتابه، عندما أصبح همُّ بعض الحكام ضمان الاستمرار في الحكم والسيطرة على العقول والنفوس، والمبالغة في التسلط على العباد والبلاد، وعدم إعطاء أي فرد الحق في محاسبة المسؤولين على تصرفاتهم، مما جر البلاء والدمار على كل شيء، وفرضت الطاعة العمياء على الإنسان في الخير والشر، والطاعة والمعصية، والحق

والباطل.. إن أحداث التاريخ والتجارب والدروس التي مرت بالأمة في الفترة القريبة من حياتها، أو صلتها إلى مرحلة اليقين أن: خصومها وأعداءها، الذين كانوا يمنون أتباعهم وأولياءهم الأماني الكاذبة الشيطانية، ما كانوا إلا مخادعين لهم، فقد كشروا اليوم عن أنيابهم، وأظهروا مكامن حقدهم وغيظهم، وبرزوا على حقيقتهم، وهذا كله كان يكفي في التنبيه عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:120)، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (البقرة:217)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران:118).

وهذا الإدراك للمخادع، كفيل بأن يحمل من عنده مُسكة عقل من المخدوعين على تغيير تفكيرهم وتعاملهم مع أعدائهم، ولعلها تورث يقظة وانتفاضة.

المعين الذي لا ينضب:

وفي كل فترة من فترات الضعف والسقوط والانهيار في حياة المسلمين، يقيض الله سبحانه من يستنهض الهمم، ويستثير الحمية، ويشعل العواطف، ويلهب الحماس، ويدعو إلى العودة إلى دين الله، ويستنجد بالمسلمين للنهوض بواجبهم نحو حماية الدين والغيرة عليه، والذود عن الأعراض والدماء، والدفاع عن الأرض المسلوبة، والوقوف في وجه المغتصب الغازي، فتعود الكوامن الخيرة الدفينة في النفوس إلى الحياة من جديد، ويهب المسلمون بعد تذكر ماضيهم المشرق ومجدهم المسلوب، وتاريخهم الناصع بالمواقف الحميدة، فيستعيدون ماضيهم بثقة وعزيمة صادقة.. عندما توجد القيادة الصادقة مع ربها.. المخلصة لدينها، الواثقة بوعد الله سبحانه، القادرة على جمع كلمة المسلمين، المترفعة عن حطام الدنيا وسفاسفها، الساعية إلى الغايات العالية النبيلة، التي

لا ترى لنفسها غاية سوى نيل مرضاة الله تعالى، والموت في سبيل إعلاء كلمته، طلبًا للدرجات العلى من الجنة.

وما قيمة الحياة التي يرى فيها المسلم الأشلاء تتمزق، والدماء تنزف، والمساجد تهدم، والإسلام يتعرض لكل نقيصة، والمسلمين يمتهنون ويستضعفون في كل مكان! كيف تطيب الحياة في مثل هذه الحال لمن في قلبه مثقال ذرة من إيمان! إنه في مثل هذه الحال تكون الغلبة لصالح الإسلام والمسلمين، وتأتي عناية الله ورعايته وحمايته ونصره لهم عندما يصدقون معه.. وهذا هو الواجب المرتقب بعد الحال التي نشاهدها، والذي لا يمكن أن يقوم به المسلمون إلا إذا أخذوا أنفسهم بالعزائم وداسوا تحت أقدامهم حب الدنيا، والحرص عليها، والرغبة في رغد العيش، وصرفوا أنظارهم عما حولهم من سعة الحياة، ووفرة المال والجاه، وحتى يكون الموت عندهم أحب إليهم من الحياة عند عدوهم، وحتى يكفوا عن الكلام الذي أكثروا منه، وامتلأت به صفحاتهم ومؤتمراتهم، وندواتهم، وكتبهم، وإعلامهم، ويحولوا كل ذلك إلى عمل دؤوب مصحوب بالصمت والجد، والإخلاص، ونكران الذات، وتحديد الأهداف، والغايات السامية النبيلة، وتحديد ما بعث من أجله رسول الله ﷺ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران:164).

إنه على الرغم من العوامل العاتية التي أصابت أمة الإسلام، إلا أن عندها من الخصائص التي لا تتوفر عند غيرها، ما يجعلها أهلاً لاستعادة مجدها وحضارتها، وإمامتها للعالم، ووصايتها على البشرية إذا ما وجدت فيها القيادة الربانية.. ومن أعظم ما يؤهلها لذلك: ما تعيشه الدول المتمدينة اليوم من خواء في الجانب الإيماني، الذي صارت بفقده تائهة حائرة، تذوق ألوان الشقاء.. فالغرب الذي بلغ ما لم تبلغه حضارة في الرقي المادي، يعيش اليوم أعتى الجاهليات التي لا تعرف سوى النفع المادي، ولا

تبحث إلا عن لذة النفس ومتعتها، ولا تفكر إلا في إشباع الغرائز والشهوات.. وأصبح الدين لا وجود له في شعور الفرد، ولا في تفكيره، ولا مكان له في حياته، وهذا لا شك مما يحملها على البحث عن المخرج من هذا الوضع الأليم، ومن الشقاء المحيط بها، ولن تجد العلاج إلا في دين الله الحق.. عندما يوجد له حملة صادقون، ودعاة مخلصون.. وقادة ربانيون، يحملون في نفوسهم هم إنقاذ البشرية من التخبط الذي تعانيه، ويقومون بدورهم الحضاري المرتقب.

إن العالم اليوم -الذي وصل في الاختراعات والابتكارات والصناعات المتنوعة وألوان الرقي، واستخراج خيرات الأرض، ومعرفة أسرار الكون، والصور المتنوعة من الرفاه والسعة في العيش- يعيش في غابة من القلق والاضطراب، والأمراض النفسية، مما يحمل كثيرًا منهم على التخلص من الحياة عن طريق الانتحار وغيره، وتنتشر العداوات الطاغية على حياتهم، والتنافس المدمر، والتسابق في التفنن في صناعة آلات الحرب والدمار التي ما رأيناها يومًا ما، تحمي عرضًا أو تصون حقًا.

وسبب كل ذلك أن كل ما تقدم من الإبداع المادي، والتفنن في الصناعات وآلات الحرب، لما كانت العقول التي وصلت إليه، واخترعته، ملوثة بالكفر والإلحاد، ونكران نعمة الله وجحودها، مبتورة الصلة بوحي الله، لا تلوي على شيء سوى المصلحة الذاتية، والأنانية والأثرة، حتى أخذت تتسلط وتدمر وتطغى وتفسد، لم يبق في نفسها أثر لرحمة أو رأفة أو رقة.

وهذا من أعظم الأدلة على أن سعادة الإنسانية لا تكمن في كثرة المال، ولا الصناعات المتعددة، ولا الابتكارات المتجددة، ولا الجاه ولا السلطان، إذا لم تكن محكومة بالإيمان، وإذا لم يكن هناك اعتصام بحبل الله واستمساك بدينه واهتداء بهديه.

فالمسلمون يوم أن حكموا العالم -ومتاع الحياة الدنيا زهيد عندهم- كانت قلوبهم

عامرة بالإيمان، موصولة بالله عز وجل، تغمرهم السعادة.. ويملأ قلوبهم حب العدل، والرحمة والإنصاف والإيثار.. يكرهون كل مظهر من مظاهر الجور والظلم والعسف، فأمن تحت ظل حكمهم المسلم والذمي، والقوي والضعيف، والقريب والبعيد، وذاقوا طعم السعادة.

ومعنى هذا كله، أنه لا منقذ للعالم من التعاسة التي خيمت على قلوبهم وأجوائهم ومجتمعاتهم وعلاقاتهم، ولن يجدوا لها علاجًا فيما بين أيديهم مما توصلوا إليه، ولن يكون العلاج الذي يمنح السعادة، والرضا وسكون النفس والأمن، إلا في دين الله عز وجل، الذي أكرم الله به من أكرم من عباده، والذين يُنتظر منهم أن يقوموا بواجبهم من جديد في إنقاذ البشرية.. لأن دينهم هو دين الرحمة الذي لا يرضى بالظلم من أحد على أحد.. كل هذا بعد أن انكشف عوار الحضارة التي قامت على النظرة المادية البحتة، التي أهملت جانب العبادة والأخلاق.

الدور الحضاري المرتقب للأمة المسلمة

إن الذي يريد إصلاح مثل هذه الأوضاع التي آلت إليها أحوال المسلمين وغير المسلمين، لا ينبغي أن يتعامل معها بردود الفعل غير المتأنية، ولا المدروسة، المتسمة بالطيش والغضب عن كل شيء من حوله.. وإنما الواجب أن تؤخذ الأمور بشيء من الدراسة الواعية، والبصيرة النافذة، والعقل الهادئ، واستقصاء الأسباب والنتائج، وسلوك المسلك الذي يصلح ولا يفسد، ويوصل إلى الغاية المحمودة، فلا يعالج الفساد بفساد أقبح منه.

وهذا هو الذي يجب أن يبدأ به الدعاة المصلحون، والعلماء الربانيون اليوم، لاستدراك ما فات، وإصلاح ما عطب، ورأب ما صدع، لإعادة الثقة بالدين من جديد

إلى نفوس الناس، وردهم إلى جادة الصواب، وإغلاق منافذ الشر، والوقوف والتصدي لكل الدعوات الهدامة المفسدة، المشككة في دين الله تعالى، وإبراز محاسن الإسلام وكنوزه وعظمته، وشد الناس إليه، وغرس المحبة له، والتفاني في القيام به وحمايته، والدفاع عنه حتى يعود للمسلمين مكانتهم بين الأمم، وحتى يعيدوا لتاريخهم المشرق الناصع دوره ورونقه وبريقه، ويقشعوا عنه كل السحب التي طرأت عليه فلبدت أجواءه.

إن من أعظم مقومات المسلمين التي لا ينضب معينها، ما جعل الله عز وجل في الشريعة التي أكرمهم بها من خصائص تميزت بها عن غيرها، وهي خصائص لا تفارق الشريعة، ولا تنفك عنها.. وتلك هي:

1- الربانية.. فليست من وضع البشر القاصر، العاجز، الجاهل، المحكوم بنزعات وعواطف وميول.. قد تعصف بفكره عن الجادة، وتميل به إلى الأهواء، وتحمله على أن ينقض اليوم ما أبرمه بالأمس.. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ (فصلت:41-42).

2- العالمية.. فليست محصورة على طائفة أو قوم أو جيل معين.. قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾(فرقان:1).. وفي الحديث أنه ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ**»[1].

3- **الشمول**.. فما من قضية في شأن الدين والدنيا، إلا استوعبها دين الله عز وجل، إما بنصوص قاطعة في الدلالة، أو بقواعد وأصول وأدلة عامة تندرج تحتها قضايا كثيرة.. قال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾(الأنعام:38).. وقال تعالى:

(1) متفق عليه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾النحل:89).. وفي الأثر عن سلمان ﷺ قال: قيل له: «قد علمكم نبيكم كل شيء، حتى الخراءة».. قال: فقال: «أجل...»[1].

4- **اليسر**.. فهو الدين الذي جاء برفع المشقة عن الإنسان ورفع الحرج، وقامت كل أحكامه على اليسر وعدم التكليف بما لا يطاق، قال الله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾(المائدة:6).. ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾(الحج:78).﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:286). ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:185).

5- **الخلود**.. فقد تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الدين إلى يوم الدين، مهما تكالب عليه الأعداء، وهبت عليه العواصف العاتية.. قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:9)، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف:8-9).. وقال النبي ﷺ: «**لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ**»[2]، وفي رواية أخرى بلفظ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**»[3]، كما ورد بروايات أخرى.

ومن خصائص هذا الدين: شدة ارتباط المسلم بكتاب الله سبحانه، وملازمته

(1) أخرجه مسلم وأحمد وأصحاب السنن.
(2) البخاري في الاعتصام 149/8، ومسلم رقم 1921، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.
(3) أخرجه مسلم، «1037».

لتلاوته، وتدبره لآياته التي تدعو إلى إعمال العقل.. وملازمة الفكر والنظر والتأمل، سواء في آيات الله المتلوة، أو آياته في النفس البشرية، أو في الكون الفسيح، وإلى حسن الانتفاع بالسمع والبصر وسائر الحواس التي تميز بها الإنسان عن الحيوان، وتنعى على الذين عطلوا هذه الآلات، فلم ينتفعوا بها حتى وصفهم الله سبحانه بأنهم شر الدواب عند الله، وأنهم ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾.. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كرم الإنسان بالعقل، واستخلفه في الأرض، وشرفه على سائر المخلوقات، فإن أولى الناس بمعرفة هذه النعم الجليلة، وتقديرها حق قدرها، وإنزالها منزلتها هو المسلم، الذي لا يخرج عن منهج الله، لا يستعلي على ما ألزمه الله به من الخضوع له سبحانه، وتسخير ما حوله، طبقًا لإرادته سبحانه.

أما حث الإسلام على العلم، فما رأينا الإسلام كرم أحدًا كما كرم أهل العلم والمعرفة بالله عز وجل، الذين رفع الله درجاتهم، وحصر الخشية منه فيهم، وألزم الناس بالرجوع إليهم وسؤالهم.. كما رغب الإسلام في نصوص كثيرة في طلب العلم، ورتب على ذلك ثوابًا عظيمًا.

ولما كان الله عز وجل قد بث في النفس البشرية، وفي الكون آيات تجل عن الحصر، وكان التأمل والتدبر والتفكر فيها مما يوصل إلى الإيمان به سبحانه، ويثبته ويقويه في نفس المؤمن، فإن الله دعا عباده في كتابه العزيز إلى النظر في ملكوته، وعرض كثيرًا من آياته للدلالة على عظمته، وكمال قدرته وبديع صنعه سبحانه.

من مقومات الأمة الإسلامية

ومن مقومات الأمة الإسلامية:

1- أنه إذا وجد دعاة صادقون يقومون باستجاشة عاطفة المسلم، وإيقاظ عقله عند الغفلة والانحراف، بما يحمله على الاستجابة والعودة إلى الجادة، فإنه سرعان

ما يستجيب ولو بنسبة معينة، كما تجد عند المسلم المقصر في عبادته، والمرتكب لبعض الآثام غيرة على الدين عندما تنتهك حرماته، فتجده لا يتوانى عن المسارعة إلى الدفاع عنه إذا ما هيجت عواطفه، وشد إلى دينه، وذكر بربه سبحانه.

2- أن الإسلام أزال فوارق الجنس واللون واللغة وغيرها من الأمور التي تؤدي إلى التمزق والاختلاف، والتناحر والتفاخر والتعالي.. فجاء الإسلام لتوحيد البشرية في ظل عقيدة واحدة لا قيمة عندها لشيء غير التقوى، التي تحمل المرء على كمال العبادة، وحسن السلوك، واستقامة الخلق، وإقامة العدل، والكف عن الأذى، وتمقت كل سلوك منحرف عن منهج الهدى والحق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾(الحجرات:13)، مما أدى إلى التلاحم والتآخي والمودة والتعاون على البر والتقوى، ونبذ العصبيات الجاهلية، وأسباب الفرقة.

وهذه الميزة، حملت أفواجًا من الناس على المسارعة إلى اعتناق هذا الدين، فارة بنفسها من قهر وتسلط وإذلال من يحكم البشرية بغير دين الله، مستندين إلى تشريعات بشرية جعلت الناس طبقات متفاوتة، وجعلت من بعض الطبقات عبيدًا أو قطيعًا من الحيوان الممتهن المسخر لشهوات الحكام والطبقات العليا في المجتمع على زعمها.

وهذه الميزة أيضًا هي التي أقضت مضاجع الأعداء، فسلكوا سبلاً شيطانية كثيرة لقصد تفتيت بنية المجتمع المسلم، وإضعافه، بل ظهرت دعوات قامت بإكراه الشعوب على اعتناق المبادئ الوضعية البشرية مثل الشيوعية، التي قامت على الدماء والأشلاء فبذلوا جهودًا كبيرة كثيرة في سبيل تشويه هذا الدين، وإخراجه في غير صورته الحقيقية، وقدموه لمن يجهلونه على أنه دين تخلف وهمجية وعنف، كل ذلك خوفًا من أن يزحف الإسلام على ديارهم، أو يزحف عامتهم إلى الإسلام، لما يعرفون عن الإسلام من تأثيره

الذاتي على فطرة الإنسان، فهم دائمًا يقولون إنه العدو المرتقب، الذي لا يخافون غيره، ولا يرهبون سواه.

ولذلك نجدهم يستخدمون الأساليب التي من شأنها أن تدمر الإنسان وتنهي مقوماته الفطرية حتى لا يبقى فيه عامل من عوامل قبول الحق والخير والهدى، بل يصبح حيوانًا يلهث وراء الشهوات وإشباع الغرائز.

3- أن الإسلام -لما كان دين الحق لا يخشى مما عند غيره من معارف وثقافة- فإنه غير منكفئ على نفسه، رافض ما عند (الغير)، منغلق في تفكيره، وثقافته، بل يقبل الاستفادة مما عند غيره من الخير إذا كان متوافقًا مع عقيدته وهديه وأخلاقه وقيمه، فهو يحيط هديه بسياج منيع من القيم والآداب والأخلاق والقواعد والأصول.. وفي إطار ذلك كله، يقبل أو يرد ما عند غيره، ويفتح للعقل آفاقًا واسعة من العلوم والمعارف.

4- أن دينها اتصف بالوسطية في كل شيء، فلا إفراط فيه ولا تفريط.. ومن وسطيته: عدم الغلو في جانب العبادة، أو جانب المادة، فهو يعطي الجانب العبادي حقه الذي يصل إلى مرحلة الكمال، ويعطي الجانب المادي حقه الذي يصل إلى مرحلة إشباع الرغبة وقضاء الوطر دون إسراف ولا تقتير ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ (الحديد:21)،﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ (الأعراف:32).

ولا يقبل الغلو في أيهما، قال تعالى:﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾(الأنفال:6)﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ (البقرة:187)، وقال تعالى:﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورٗا﴾ (الإسراء:29)، ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف:31)﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ (القصص:77).

وهذه السمة تمنح الأمة التوازن في حياتها، وتحفظها من الشطط في الجانب المادي الذي يحول أفرادها إلى حيوانات، وفي الجانب العبادي الذي يعطل عليها حياتها ويصرفها إلى الرهبانية.

ومما جاء في السنة، إنكار رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون ﷺ رغبته في التبتل: أنه قال له: «**يَا عُثْمَانُ, إِنَّ الرَّهْبَانِيَّةَ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْنَا, أَفَمَا لَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ..**»؟[1]، كذا في رواية عائشة، ﷺ، وفي الحديث أنه قال له: «**يَا عُثْمَانُ، إِنِّي لَمْ أُومَرْ بِالرَّهْبَانِيَّةِ، أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي**»؟[2].

وهذه القواعد التي أرساها الإسلام في منهج الحياة للمسلم، حفظت المسلمين من أن تتخطفهم الاتجاهات المغالية في أي مجال، لأن الإسلام أشبع رغبة المسلم في كل الجوانب دون أن يطغى جانب على آخر، مما أحدث التوازن والاعتدال والتكامل في حياة المسلم، ولذلك فإن الصوفية التي غالت في الجانب العبادي والعزوف عن الدنيا والرغبة عن العلم بكل أشكاله، واكتفت بأنواع من الذكر والرقص والسماع إلى غير ذلك من الصور التي أساءت إلى الإسلام، أوجدت شرخًا في حياة المسلمين، وصورت الإسلام على أنه دين الخمول والركود وتبديد الطاقات في غير مكانها أو إخمادها، في الوقت الذي يتسابق أعداء الإسلام في مجال الاختراع والإبداع واكتشاف أسرار الكون، مما جعل المسلمين يعيشون في كل حياتهم عالة على أعدائهم، عزلاً عن السلاح إلى جانب عوامل أخرى أشرنا إليها سابقًا، إلا أنه من رحمة الله سبحانه بهذه الأمة أن هذه

(1) أخرجه أحمد، 226/6.
(2) وأخرجه الدارمي، 132/2، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

النظرة القاصرة ظلت محصورة في فئات من المسلمين، وإلا فإن الجناية كانت أعظم.

وجناية أخرى وشرخ آخر في حياة المسلمين أوجده الذين استجابوا للإغراء والشهوات فبالغوا في هذا الجانب، وخرجوا عن حدود الشرع، حتى صارت العبادة عندهم أمرًا ثانويًا، لا مجال له في اهتماماتهم، مما أدى إلى الشطط في الجانب الآخر.. والكل بعيد عن وسطية الإسلام المتكاملة المتوازنة.

وعلى ما أصاب المسلمين من عوامل هدم وفدت عليهم من هنا وهناك، فإن المسلمين ما تزال عندهم قدرة على العودة الصادقة إلى دين الله، إذا ما وجد من يوقظ فيهم الحس الإيماني، ويثير فيهم النخوة على دينهم وأعراضهم وثرواتهم ومقدراتهم ودمائهم...

كما أن العوامل التي حفظت عليهم هويتهم الشخصية تشكل قوة كامنة، وبركانًا مطمورًا يمكن أن يتفجر في أي وقت، إذا ما جد أيضًا من يحسن استغلاله في الدفاع عن دين الله سبحانه، والشواهد في حياة المسلمين كثيرة، فمن تذكر أحوال المسلمين أيام التتار، ثم التحول المفاجئ في حياة المسلمين يجد دليلاً ناصعًا على ذلك.

وكذلك استنهاض صلاح الدين الأيوبي لهمم المسلمين وصدق دعوتهم إلى العودة إلى دين الله عز وجل، ثم خوض المعارك بهم التي آلت إلى عز ونصر وتمكين للمؤمنين، شاهد آخر.

وكل هذا يعني أن المسلمين اليوم على ما هم عليه من أحوال يدمي لها القلب، لو يجدون دعوة صادقة، وقيادة رشيدة، وقدوة صالحة، لاستعادوا أمجاد ماضيهم، لا بالكلام والتغني به فحسب، بل بالعودة الحميدة إلى الدين، والبذل لحمايته، والقيام بالمهام المناطة بهم كأمة أراد الله سبحانه لها أن تكون رائدة هادية مصلحة مجاهدة

عادلة، تسعد بمنهجها وسيرتها وحضارتها الإنسانية كلها، وترفع عن كاهل الإنسان الشقاء والدمار والقلق والاضطراب والظلم والعسف والجور والتسلط، الذي حل به بسبب إقصاء الإسلام عن قيادة البشرية، ووضع الزمام بأيد تجردت عن كل مظاهر الرحمة والهداية، وقطعت صلتها بالوحي الإلهي، وصارت أقبح من الوحوش الضارية، سلبت الإنسان أبسط حقوق الإنسانية، وحولت حياته إلى جحيم لا يطاق.

كل ذلك بسبب غياب الهدي الرباني..

كما أن العدو ما برح يسير في طريقه، وجبلته التي طبع عليها، والتي أخبر الله عز وجل عنها من شدة عداوته للحق وأهله، واستمراره في حربه لهما، ومحاولته الدؤوبة في إخراج المؤمنين من دينهم:﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ (البقرة:217).

إن الفتنة التي يحرص أعداؤنا على إشاعتها بين المسلمين أشد وأنكى وأفتك بحياة الأمة من التكاليف التي يمكن أن يبذلونها لحماية دينهم وأنفسهم ومصالحهم وصد الفتنة والشر، كما أخبر الحق سبحانه وتعالى بقوله﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ (البقرة:191).. ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾(البقرة:217)، وقال سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (الأنفال:39).

إن النظام العالمي الجديد، الذي يسعى وراء الهيمنة وإحكام القبضة التي لا تترك أحدًا من البشر، إلا تسلطت عليه، ما رأى المسلمون بعد ظهوره سوى الضربات الموجعة المتتالية عليهم في كل مكان، وبصور مختلفة، وأساليب شتى، إلى جانب ما يواجهونه من الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي.

فهل آن الأوان لصدق العودة إلى دين الله، والأخذ بأسباب النصر، وتقديم

التضحيات ?! إنه الأمر الذي نرجو أن يتحقق بعد الدروس والعبر المتتالية.

• وخلاصة القول:

أن الله عز وجل قد تكفل بحفظ الدين، ونصر أوليائه، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ (غافر:51).. ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (النور:55)..

والنصر والتمكين الذي تحقق لهذه الأمة في فترات مضت، سوف لا يتأخر عند وجود أسبابه وموجباته في أي مكان وفي أي زمان.

وإذا كان الله عز وجل قد وعد أولياءه بالنصر -﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ - فقد توعد أعداءه بالأخذ والنكال والهزيمة والعذاب في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى:﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل:112). ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾(الطلاق:8-9).. ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف:128).

وربما كان شدة الطغيان والعناد والاستكبار والإفساد في الأرض من العدو، من أسباب نصر المؤمنين.. ليبتلي الله عز وجل من يخلف المعذبين المنهزمين، كما قال سبحانه: ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:129). قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ

مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ (الأعراف:100)، ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ (يونس:13-14).

إلا أنه لا ينبغي تجاوز سنن الله عز وجل في النصر والهزيمة، فنصر الله عز وجل لأوليائه، لا يمكن أن يتحقق للقاعدين عن نصرة دين الله، الذين لا يعرفون سوى الأماني والدعاوى التي لا وجود لها في الواقع، ذلك أن الله عز وجل قد أبان في كتابه السنن التي بها يهب النصر لعباده إذا ما قاموا بها..

وأهل التوحيد الصادقون، الذين على أعناقهم تقوم المسؤولية في نصرة دين الله تعالى، يتعين عليهم أن يحققوا صدق دعواهم، ويقيموا عليها الأدلة والبراهين، وأن لا يأخذهم اليأس والقنوط من نصرة الله ورحمته، وأن لا يظنوا أن النصر يأتي للمؤمنين بمجرد انتسابهم إلى دين الله، فذلك خروج عن منهج الله وسننه في النصر والهزيمة، وعليهم أن يتذكروا قوله سبحانه وتعالى﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ (محمد:7)، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ﴾ (الحج:40)، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ (محمد:4)، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الروم:47).

إضافة إلى أن حجم الصراع القائم اليوم بين الحق والباطل يحتاج إلى تكاليف باهظة، مما يوجب إعادة النظر فيما تحتاجه المرحلة القادمة من عدة في: الإيمان الصادق والعتاد المكافئ المقدور عليه، والداخل تحت الطاقة التي لا يكلف الله العباد بغيرها..

فإن الأمراض الفتاكة التي انتشرت اليوم بين المسلمين، وعدم الأخذ بالسنة الإلهية في الإعداد المادي، لا تمت إلى عوامل النصر بصلة، بل هي من عوامل الهزيمة.

هذا.. ونسأل الله تعالى أن يأخذ بنواصي عباده المؤمنين إلى أهدى السبل وأقومها، حتى يتحقق لهم وعد الله.. إنه ولي ذلك والقادر عليه..

سائلاً الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله عملاً خالصًا لوجهه.. متقبلاً، إنه حميد مجيد.

والحمد لله رب العالمين.